

نهج القرآن

المؤلف: محمد خلف الله أحمد

المدرس بكلية الآداب

قبل أن أحدثك عن نهج القرآن ، أحب أن أسلك معك المسلك التجريبي في البحث ، فأقرأ وإياك سورة من سور الكتاب ، ولتكن سورة الرعد ، فإن لها نهجاً خاصاً في التدليل على شرف القرآن ، ودحض عناد المشركين ، وبيان الفساد في منطقهم وتفكيرهم ، وإن لها لطابعا بلاغياً جميلاً من نوع ما انفرد به القرآن الكريم . وأنا الضمين لك - إذا قرأت معي السورة إلى آخرها - أن تتذوق ناحية من نواحي الحجاج المقنع المسكت ، والبيان الرائع الجليل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلتقون . الآن وقد قرأت السورة كما يقرأ الأديب النص الأدبي ، فتناول قلباً ، ودون على القرطاس صورة من سلسلة المعاني التي تركتها قراءة السورة في ذهنك - وسترى مما كتبت أن هذه السورة تدخل بك على موضوعها مباشرة معلنة أن تلك الآيات آيات الكتاب ، وأن الذي أنزل إلى محمد من ربه الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون - وقد قامت من حولهم الدلائل الملموسة

الظاهرة التي من شأنها أن تدعو الناس إلى الإيمان بالله . فالله الذي رفع السموات بغير عمد ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، وهو الذي يدبر الأمر يفصل الآيات ، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ونوع فيها من ضروب الثمرات والجنات والأعشاب والزرع والنخيل . أليس عجيبا أن يشك هؤلاء الناس في إعادتهم خلقاً جديداً بعد أن كانوا ترابا ، وأن يستعجلوا العقوبة وقد خلت من قبلهم المثلثات . لقد كانوا إذاً على علم بهذه المثلثات التي قد خلت من قبلهم ، ولولا ذلك العلم ما استحقوا التوبيخ على عدم الاعتبار . وهم كانوا على علم بما أنزل على بعض الرسل من قبل ، ولولا ذلك ما اقترحوا على محمد آية مثل آية موسى أو سليمان .

وهنا تعود السورة إلى تمجيد الله وعلمه بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وتقديره كل شيء بمقدار ، وعلمه الغيب والشهادة والسر والجهر والخفاء والظهور ، وتخويفه الخلق . وإطاعتهم بالبرق ، وإنشائه السحاب الثقال ، وإرساله الصواعق يصيب بها من يشاء . ثم تندد السورة بمن يدعو غير الله ، وتشبهه ببساط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وتحتاج من يتخذون من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه ، وتتبع هذا بتمثيل للقرآن — أو الحق — مشتقة عناصره مما حول هؤلاء الناس من بيئة طبيعية ، من السيل والأودية والزبد الرابي ، ومما يوقدون عليه في النار من المعادن والفلزات ابتغاء حلية أو متاع . وتفرق السورة بين أصحاب البصيرة ومراضها : فتصف الأولين بأنهم أولوا الأبواب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا سرا وعلانية ، وبدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . أما مراض البصيرة فهم

المتصفون بنقيض هذه الصفات ، وأولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار .
وتعود السورة مرة أخرى إلى اقتراح هؤلاء الناس أن تنزل على الرسول آية
أخرى : فتتدد بجهلهم حكمة الله في اختيار القرآن معجزة لنبيه العربي ، وقد
اختار لبعض سابقه من الرسل آيات طبيعية كفاق الحجر وتفجير الأرض
عيونا وتسخير الرياح وإحياء الموتى ، وتقول في الرد عليهم : « ولو أن قرآنا
سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » تاركة للذوق العربي
أن يقدر في العبارة جوابها المحذوف .

ثم تستمر الصورة على هذا النحو ، وفي حدود المعاني التي ذكرناها ، مقررة
موازنة مقرعة حتى تصل إلى خاتمتها « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن
عنده علم الكتاب » .

وإنما سألتك أن تكون العناية بتصوير المعنى أولى خطواتك في تذوق
هذا النص الكريم لآتي سمعت العارفين يقولون إن فهم المعنى فهماً صحيحاً هو
أول مرحلة ضرورية من مراحل النقد ، وقد أجرى أحد أساتذة الأدب
الإنجليزي في جامعة « كمبردج » تجربة من هذا النوع تبين له منها أن معظم
الخطأ في النقد إنما يجيء من الخطأ في حل المعنى .

وبعد فما الذي لاحظت على نظم هذه السورة وأسلوبها التعبيري ؟ أتحب
أن تدون ملاحظاتك على هذه الناحية أيضاً ؟ إذا فافعل . إن لهذه السورة كما
تري نهجا في نسجها متميزا : فهي تنتظم ثلاثا وأربعين آية ، ختام كل آية فيها
كلمة ممدودة بالالف بعدها حرف (إلا ستا منها ممدودة بالواو) وثلاث
خواتيم هذه السورة كما ترى على روى الباء (عقاب - الألباب ، الحساب ...)
(الخ) ، وأكثر من نصف هذا العدد على روى الراء (بمقدار - بالنهار - القهار
(الخ) ، ونصف العدد الأول على روى اللام (المتعال - وال - الثقال ... الخ)

ثم عدد صغير على روى الدال (هاد - المهاد - الميعاد ... الخ) ، وعدد على روى القاف (الميثاق - واق ...) وواحدة على روى العين (متاع) ومن المدودات بالواو خمس على روى النون . تبتدىء بها السورة (يؤمنون - توقنون ... الخ) ، وواحدة على روى الباء (القلوب) .

ولعلك لاحظت بجانب هذا شيئاً من التكرار المتتابع في خواتيم بعض الآيات (لكل أجل كتاب . يحجر الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وكذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . ألم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) .

لهذه السورة إذا وحدة ظاهرة في موضوعها وهو إظهار شرف الكتاب المنزل ، وتسفيه آراء المعاندين في طلبهم قرآنا غير هذا ، أو آية مادية مثل آيات بعض الرسل السابقين . وأول آية فيها تقرب أن تكون تقريراً للموضوع كله ، ثم تتوالى بعد ذلك الآيات مفصلة الموضوع من جميع نواحيه في دلالة القرآن على قدرة الله وصدق الرسول ، وفي منزلته من الآيات السماوية الأخرى ، وفيما كان من شأن المعاندين معه ، وفي بيان انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم .

ولهذه السورة أيضاً طابع خاص في خواتيم آياتها ، حصرنا حروفه الختامية في خمسة أو ستة متقاربة المخارج (ب . ر . ل . ن .) ، وبعض هذه الخواتيم مكرر تكراراً رقيقاً لا يكاد يشعر به القارئ إلا إذا نبه إليه . وقد تشتمل الآية على لفظة مكررة أربع أو خمس مرات دون أن يشعر القارئ . بآثر عمل لهذا التكرار (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلته فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) .

وشئنا آخر تلاحظه فى كثير من آيات هذه السورة ، ذلك أن القصص يبدأ فيها بصورة الفعل الماضى ويستمر شيئاً حتى إذا قاربنا آخر الآية وجدنا جملة اسمية أو مضارعية ينتهى عندها الكلام ويحسن السكوت والاستقرار (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى . . . يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

أما ناحية الجمال الفنى فى السورة فإنك تلمسها فى كل آية من آياتها ، وأظهر ما تظهر فى مناسبة الألفاظ لموضوعاتها : فإذا كان المقام مقام تدليل على قدرة الله جاءت العبارة كلها حافلة بهذا المعنى من رفع السموات بغير عمد والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر . ومد الأرض وإغشاء الليل النهار . وإذا كان المقام مقام تخويف سمعت الآية تعجب بما فيها من رعد وبرق وصواعق . وفى مقام الكلام عن المخالفين تسمع نقض العهد وقطع ما حقه أن يوصل ، والإفساد فى الأرض واللغة وسوء الدار .

وتم ناحية أخرى هى تناسب الألفاظ والأصوات وجريانها معاً فى عذوبة وسهولة حتى إنك لتلمس لكل آية طابعاً خاصاً فى أصواتها (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذى آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) (ولو أن قرآنا سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلم به الموتى) (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) .

ولعلك لاحظت أن قاموس السورة مشتق أغلبه من البيئة العربية الطبيعية فهناك السماء والشمس والقمر والأرض والرواسى والأنهار والثمار والجنات

والأعنان والزروع والنخيل والبرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق
والأودية والسيول والزبد والنار والحلوة والمتاع والرزق .
وفيها من المتقابلات أزواج : الليل والنهار ، والسيئة والحسنة ، المغفرة
والعقاب ، والغيض والازدياد ، والغيب والشهادة ، والسر والجهر ، والمستخفي
والسار ، والخوف والطمع ، والطوع والكراهة ، والغدو والآصال ، والنفع
والضرر ، والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والحق والباطل ، والجفاء
والنافع ، والوفاء والنقض ، والضلال والهدى ، والمحو والإثبات ، والدنيا
والآخرة .



لعلك ترى معنى أن الحكم على نهج القرآن يتطلب قراءات كثيرة من هذا
النوع ، ويتطلب معرفة تامة بخصائص الأساليب ومميزاتها . وبعد فمن أى فنون
الأدب نعد القرآن ؟ كان من بعض مرمى الكفار به صاحب الدعوة أن
الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر .

وقد أنكر القرآن عليهم ذلك فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن
هو إلا ذكر وقرآن مبين » ، وقال « وما هو بقول شاعر » . فأما أن القرآن
مغاير لما تواضع العرب على تسميته شعرا فذلك مالا شك فيه . ولكن من
المحتمل أنهم رأوا لهذا القرآن تأثيرا سحريا من نوع ما كان يبعثه فيهم سماع
أشعارهم ، وأنهم رأوا له جرسا موسيقيا هو في الذوق من خصائص الشعر .
ومن المحتمل أنهم رموه بكونه من قبيل الشعر ليقللوا من شأنه وليقولوا إنه
من مقدور البشر . ولو أنهم اعتقدوه حقيقة شعرا ، ولم يروه خارجا عن أساليبهم
في الشعر لبادروا إلى معارضته لأن الشعر - كما يقول الباقلاني في إعجاز
القرآن - مسخر لهم ، مسهل عليهم ، لهم فيه تصرف عجيب ، واقتدار لطيف .
ولعل قائلا يقول : إذا كنا قد نفينا عن القرآن خصائص الشعر عند العرب

فهل تنطبق عليه بعض خصائص الشعر عند الفرنجة ؟ إن في القرآن شيئا كثيرا مما يمكن أن يسمى في اصطلاح النقاد أدبا قصصيا ، وشيئا مما يمكن أن يسمى أدبا تهذيبيا ، وأدبا نقديا ، وبعض آياته التي تشتمل على تمجيد الله وتقديس صفاته والتي تخاطب العاطفة والوجدان أكثر مما تخاطب الذهن والفهم ، تكاد تشبه في موضوعها ما يسميه الأوربيون الشعر الغنائي الذي كان الأصل فيه عند اليونان أن ينظم لتمجيد الآلهة وتكريم الأبطال .

كل هذا حسن ، ولكن الشعر الإفرنجي أيضا له ضوابطه وموازينه وألحانه وليس شيء من هذا بمنطبق على القرآن .

إن الأدب ينقسم عادة إلى فني الشعر والنثر . وإذا أردنا أن نعرف نوع فن القرآن بالنسبة لهما فلنقف عندهما وقفة قصيرة ولنحاول التفرقة بينهما من حيث كونها نظامين متميزين من أنظمة التعبير .

إن الشعر يختلف عن النثر لافي مادته فحسب ، ولا في طريقته فحسب ، ولكن في الاثنتين معا . فالشعر وليد الحياة الوجدانية وترجمانها ، وإذا خاطب فإنما يخاطب الانفعال والعاطفة والذوق والإحساس . وهو من حيث طريقته يهب الشطر الكبير من عنايته للألفاظ وجرسها وموسيقاها وتناسبها وصورها الفنية .

فهو - كما عرفه أحد الشعراء الأجانب - أحسن الكلمات في أحسن نظام . وأنت في قراءتك الشعر الجيد لا تستطيع أن تتجاهل جاذبية الألفاظ فإنهم يفرضن أنفسهم عليك فرضا .

أما النثر فهو ترجمان الحياة الفكرية المعقدة ، وهو أداة التعبير إذا تشعبت الحياة وتنوعت مطالب الفكر ، وأصبح للشعب فلسفة ونقد وسياسة واجتماع راق . وعناصر النثر الأفكار والألفاظ ، فما الكلمات فيه إلا رموز عن المعاني ومطايا لها . فإذا جذبت الكلمات الانتباه إلى أنفسهن وحان بين القارئ أو

السامع وبين تمام الانصراف إلى المعنى كان ذلك إلى الشعر أقرب . ولهذا السبب كانت ترجمة النثر إلى لغة أخرى أيسر من ترجمة الشعر ، فالفكرة - لكونها مستقلة عن الألفاظ التي تعبر عنها - يمكن أن تنقل دون كبير مشقة . ولكن للعبارة الشعرية يتعذر نقلها فهي مجموعة كلمات ، وجودتها إنما هي في نسج كلماتها ، وفي الأصوات والروابط التي تكون لهذه الكلمات ، وقد لا تكون لمقابلاتها في اللغات الأخرى .

فأين منزلة القرآن إذا بالنسبة لهذين الفنين ؟

إن في القرآن لسحرا يصل بينه وبين الشعر ، وفي ألفاظه رونق تتطلع إليه أعناق الأساليب الشعرية ، وإنك لو أخذت لفظة من ألفاظ القرآن فوضعتها في مكان مناسب من كتابتك أو خطابتك ، كسب أسلوبك منها حلية وجمالا يحس بها كل ذى ذوق في الأدب ، وهناك صلة وشبه بين بعض موضوعات القرآن وموضوعات الشعر كما أسلفنا . وبعض السور المكية التي نزلت في مهد الإسلام ترى لها فواصل قصارا ، والتزاما أحيانا لحرف واحد في أغلب السورة يقرب من التزام الروى في القصيدة ، وتسمع لهذه السور عند قراءتها رنيننا ونغما يحلو تجويده والترنم به .

والقرآن مع ذلك ليس ببعيد من النثر ، ولم يعن أن ينفي عن نفسه صفة النثرية كما عني في أكثر من موطن بنفي صفة الشعرية . ومثانيه منها الطويل ومنها القصير ، ومنها ما يقرب أن يكون مسجوعا ، وما يصح أن يسمى مرسلا وفي بعض أساليبه شبه بأسلوب الخطابة . وموضوعاته التي يعالجها من حجاج وخصام ، وإجمال وتفريع ، وتذكير وتفريع ، وتدليل وتشريع ؛ كل أولئك موضوعات تقتضى طبيعتها أن تعالج في أساليب نثرية .

ورغم كل هذا وذاك فالقرآن ليس بالشعر ولا هو بالنثر ، ولا يمكن أن

تنطبق عليه خواص أحد الفنين كاملة ، وبينه وبين ما صحت نسبته إلى الرسول
من أحاديث وزسائل وخطب بون كبير ، وإنما هو إذاً بيان عربي فريد ، له
طابعه البلاغي الخاص ، وله طريقته البلاغية الخاصة ، ولم نجد شيئاً من ماثور
الأدب الجاهلي يشابهه أو يدانيه ، ولم يحىء بعده في الأدب الإسلامي كتاب
أفصح في أن ينحو نحوه ، أو يقلد فنه ، أو يتحدى إعجازه ؟

محمد خليف الله